

وقفات رمضانية التراويح أكثر من ألف عام في المسجد النبوي

ويصلي الإمام الحنفي يوماً في محراب النبي صلى الله عليه وسلم الذي في الروضة الشريفة فيصلي الإمام الشافعي ذلك اليوم في المحراب الذي خلف المنبر (محراب السلطان سليمان عليه الرحمة والرضوان) ثم في ثاني يوم يصلي الإمام الشافعي كذلك. ويصلي الحنفي مثل ما صلى هو أول يوم. وهو لا يصلون التراويح أيضاً في وقت كل لجماعة إلا في ليلة الختم للشافعي فإنهم يصلون جميعاً العشاء والتراويح خلف إمام واحد هو إمام الشافعية وكان إمام الشافعية هو المقدم آنذاك. في الفريضة يصلي أو لا وفي التراويح يختم هو أو لا أيضاً في حفل وحفاوة بالغة كالآتي:

قال النابلسي يصف حضوره لختم القرآن العظيم في صلاة التراويح في الروضة الشريفة مع السادة الشافعية. وما شاهده بنفسه كالآتي:

«جاء في محلة العرب ج 9 من سنتها الأولى سنة 1387 عدد ربيع الأول. نقلنا عن رحلة النابلسي ما نصه: وذكر أي النابلسي: «أنهم يختمون في كل رمضان في صلاة التراويح ختماً كاملاً، يجعلونه ليلة السابع والعشرين من رمضان وأن الحنيفة يجعلون الختم ليلة التاسع والعشرين من رمضان.» والنابلسي حنفي المذهب.

ثم قال: «وجلسنا في الروضة الشريفة حين أذن العشاء، واجتمع الناس وحضر العلماء والأعيان، والأكابر على طبقتهم، كل واحد منهم له سجادة مبسوطة في مرتبة، وحضر مفتي الحنيفة، ومفتي الشافعية، وقاضي المدينة، وشيخ الحرم، وخدام الحجرة المطهرة، والخطباء والأئمة وكلمهم، وكان الشريف سعد بن زيد أمير الحجاز قد سافر قبل ذلك مع أولاده وعساكره إلى جهة مكة، أي أنه لم يحضر لسفره. ولعل هذا يشير إلى حضور الأمير في مثل ذلك اليوم.

قال: «وحضر المؤذنون كلهم فأقاموا الصلاة، وصلى الإمام بالناس كلهم صلاة العشاء.» أي أنهم جميعاً صلوا بصلاة إمام واحد فريضة العشاء على غير المعتاد في بقية الأيام. وذلك تمهيداً لصلاتهم جميعاً التراويح بإمام واحد ولذا قال: «وكانت النوبة في الإمامة للشباب الفاضل حادي الفضائل السيد عمر بن السيد السموودي الشافعي.» أي أن إمامة الشافعية موزعة على عدة أشخاص من الشافعية أنفسهم ويتناوبون الصلاة بالشافعية وكذلك الحال عند الأحناف لهم عدة أئمة كما تقدم بيان عدد الجميع.

ثم قال - وهو محل شامد -: «ثم صلى بهم التراويح إلى أن فرغ منها.» أي أن الإمام الشافعي وهو السيد عمر بن السيد السموودي شافعي المذهب صلى بالجميع التراويح تلك الليلة إلى أن فرغ منها.

ثم قال مبيناً صورة الختم وحفاوتهم به: «فاجتمع المؤذنون في الروضة الشريفة وأنشدوا القصائد النبوية المشتملة على المديح، وذكر الروضة، والمنبر والحجرات المطهرة وحصل الخشوع والبكاء، وأنشدوا القصائد في وداع شهر رمضان، وضح الناس بذلك، وكانت الهيئة العظيمة والجلال والخشوع. وقد أشعلوا الشموع الكثيرة، وصفاها في الروضة الشريفة والقناديل العديدة موقدة ومباخر الطيب بالعين والعود دائرة، وماء البورد كأنه سحابة هامة وكل جماعة من الحاضرين قدامهم طبق موزوع من الزهور والفل والفاغية، وأنواع الرياحين. حتى أرسل شيخ الحرم إلى الإمام بعد فراغه بالخلة السنية الذهبية، وقام الناس يباركون له الختم الشريف وهو جالس في محراب النبي صلى الله عليه وسلم وذلك المقام المنيف وقد حصل لنا كمال الثواب والأجر في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وزينا النبي صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر رجلاً من أهل اليمن مجذوب الحال كان يحمل قربة ماء من البئر الذي في صحن الحرم النبوي ويقول شقاً شقاً ولا يأخذ شيئاً من أحد. ثم ذكر انتهاء ذلك الحفل وانصرف ذلك الجمع وانقضت التقاديل بالتسوع.

وبهذه المناسبة فإن عمل الاحتفال المذكور لختم القرآن في رمضان كان معمولاً به في مكة من القرون السابقة حيث جاء عند ابن جبير في رحلته وصف عمل الحفل المذكور بأعظم وأكبر من هذه الصورة سنوردها آخر البحث إن شاء الله.

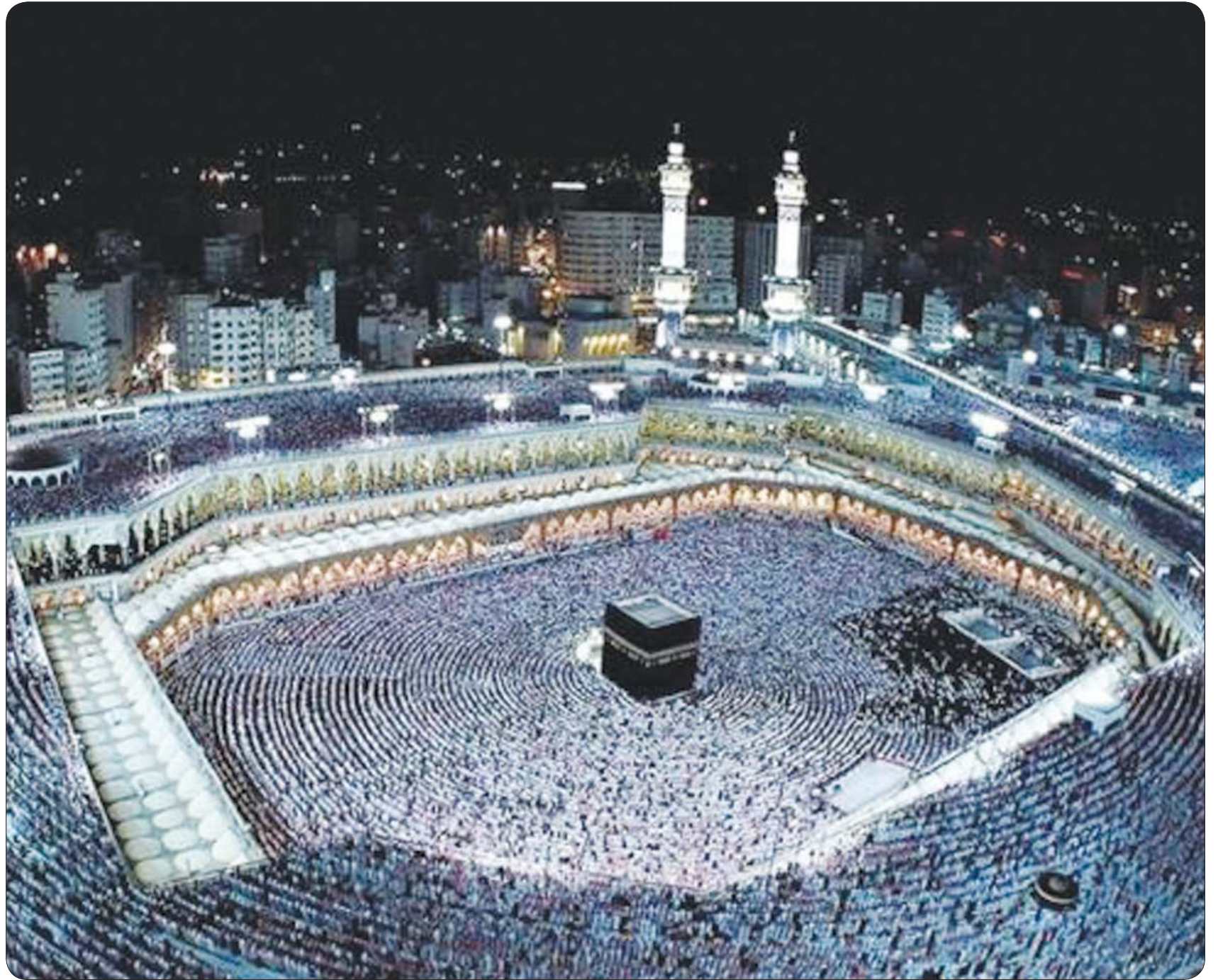
كما أنه كان موجوداً أيضاً بالمدينة في نهاية العهد التركي وعلى أوضاع متعددة سيأتي ذكرها عند الكلام على القرن الرابع عشر إن شاء الله في أواخر عهد الأتراك والأشراف. ولا نستبعد أن تكون صورة الختم تلك ممتدة من ذي قبل وليست وليدة القرن الثاني عشر فقط. ولا سيما وأن المقدم فيه من ختم الشافعية الذين لهم الأولوية في الإمامة من زمن مسبق من على عهد الأتراك أنفسهم والذين يناصرون المذهب الحنفي مما يدل على أن هذا الحفل ليس من مبتكرات الأتراك بل لعله من بقايا الفاطميين والله أعلم.

دخلت المئة الثالثة عشرة والتراويح على حالتها الأولى حيث لم يطرأ ما يستوجب تغييرها تبعا لوضع المنطقة كلها؛ لأن المدينة ومكة ظلتا تحت حكم الأشراف حكماً مباشراً وإن كانت تبعا للخلافة العثمانية في تلك الفترة.

وتقدم لنا أن الحجاز ظل تحت حكم الأشراف من قبل وإن كان موجهاً بين الفاطميين والعباسيين إلى أن قامت الخلافة العثمانية التركية، ابتداء من السلطان سليم بصر، سنة 922 وبعدها من مفرقة سنة 923 وظلت الحجاز أيضاً بأيدي الأشراف تحت سلطان الخلافة العثمانية. إلى أن قامت الحرب العالمية الأولى وانتهت الخلافة بانتهاؤها وكان آخر قائد تركي بالمدينة هو فخري باشا، قائد الحامية التركية، وسلم المدينة سنة 1337هـ.

وآخر أمير للأشراف بمكة الشريف الحسين، وبالمدينة الشريف علي. وفي سنة 1345 تودي بالشريف الحسين ملكاً على البلاد العربية.

فلم تخرج المدينة في تلك الفترة عن الحكم المباشر للأشراف سواء كان ذلك في أوائل العهد التركي أو في أواخره. فلم يطرأ في المئة الثالثة عشرة أي تغيير على التراويح إلى أن دخلت المئة الرابعة عشرة أي هذا القرن الحالي. وقد شاهد المعاصرون التراويح على ما كانت عليه إلا أنه تعدت لها الأئمة في المسجد النبوي على النحو الآتي بيانه في الكلام على القرن الرابع عشر إن شاء الله.



عليه وسلم - يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله عز وجل، واعتكف أزواجه وأصحابه معه وبعد.

وفي صحيح البخاري عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كان النبي - صلى الله عليه وسلم - يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوماً.

والمقصود بالاعتكاف: انقطاع الإنسان عن الناس ليتفرغ لطاعة الله، ويجتهد في تحصيل القواب والأجر وإبراك ليلة القدر، ولذلك ينبغي للمعتكف أن يشتغل بالذكر والعبادة، ويتجنب ما لا يعينه من حديث الدنيا، ولا بأس أن يتحدث قليلاً بحديث مباح مع أهله أو غيرهم.

ويحرم على المعتكف الجماع ومقدماته لقوله تعالى: (...ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد...)

وأما خروجه من المسجد فهو على ثلاثة أقسام:

- 1 - الخروج لأمر لا بد منه طبعاً أو شرعاً لقضاء حاجة البول والغائط والوضوء الواجب والغسل من الجنابة، وكذا الأكل والشرب فهذا جائز إذا لم يمكن فعله في المسجد، فإن أمكن فعله في المسجد فلا. مثل أن يكون في المسجد دورات مياه يمكن أن يقضي حاجته فيها، أو يكون له من يأتيه بالأكل والشرب، فلا يخرج حينئذ لعدم الحاجة إليه.
- 2 - الخروج لأمر طاعة لا تجب عليه كعبادة مريض، وشهود جنازة ونحو ذلك، فلا يفعله إلا أن يشترط ذلك في ابتداء اعتكافه مثل أن يكون عنده مريض يحب أن يعود أو بخشى من موته، فيشترط في ابتداء اعتكافه خروجه لذلك فلا بأس به.
- 3 - الخروج لأمر ينافي الاعتكاف كالخروج للبيع والبشرى ونحو ذلك، فلا يفعله لا بشرط ولا بغير شرط؛ لأنه يناقض الاعتكاف وينافي المقصود منه، فإن فعل انقطع اعتكافه ولا حرج عليه.

تاركاً للنوم والكسل، متحملاً لمشاق السفر، فإنه يصل إلى غايته، ويحمد عاقبة سفره وتعبه، وعند الصباح يحمد القوم السرى.

وأما من كان نوماً كسلاناً متبعاً لأهواء النفس وشهواتها، فإنه تنقطع به السبل، ويقوته الركب، ويسبقه الجانون المشتمرون، والراحة لا تنال بالراحة، ومعالي الأمور لا تنال إلا على جسر.

من التعب والمشقات (بأنيها الذين آمنوا اضطروا وصابروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلهم يفلحون) [آل عمران: 200]. ومن خصائص هذه العشر المباركة استحباب الاعتكاف فيها، والاعتكاف هو لزوم المسجد للتفرغ لطاعة الله عز وجل - وهو من السنة الثابتة بكتاب الله وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - قال الله تعالى: (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون في المساجد) وكان النبي - صلى الله

أنفسكم خيراً واجتهدوا في هذه الليالي المباركات، وتعرضوا فيها للرحمات والنجات، فإن المحروم من حرم خير رمضان، وإن الشقي من فاته فيه المغفرة والرضوان، يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - «رغم أنف من أدرك رمضان ثم خرج ولم يفرغ له» رواه ابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

إن الجنة حُفَّت بالمكارة، وأنها غالية نفيسة، لا تنال بالنوم والكسل، والإخلاق إلى الأرض، واتباع هوى النفس. يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - «من خاف أدلج - يعني من أول الليل - ومن أدلج بلغ المنزل، إلا إن سلعة الله غالية، إلا أن سلعة الله الجنة». وقد مثل النبي - صلى الله عليه وسلم - على إدراك هذا الفضل، من الكسلان المتهاون، فإن من حرص على شيء جد في طلبه، وسهل عليه التعب في سبيل بلوغه، والظفر به، فأروا الله من

الأواخر في الوتر» أي في ليلة إحدى وعشرين، وثلاث وعشرين، وخمس وعشرين، وسبع وعشرين، وتسع وعشرين. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنها لا تنزل في ليلة واحدة، بل تنتقل في هذه الليالي، فتكون مرة في ليلة سبع وعشرين ومرة في إحدى وعشرين أو ثلاث وعشرين أو خمس وعشرين أو تسع وعشرين.

وقد أخطى الله سبحانه علمها على العباد رحمة بهم، ليجتهدوا في جميع ليالي العشر، وتكثر أعمالهم الصالحة فتزداد حسناتهم، وترتفع عند الله درجاتهم (ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون)، وأخفاها سبحانه حتى يتبين الجاد في طلب الخير الحريص على إدراك هذا الفضل، وهي في الأوتار منها أحرى وأرجسى، وفي الصحيحين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: التمسوها في العشر

المباركة، وهم عنها في غفلة معرضون، فيمضون هذه الأوقات الثمينة فيما لا ينفعهم، فيسهرون الليل كله أو معظمه في لهو ولعب، وفيما لا فائدة فيه، أو فيه فائدة محدودة يمكن تحصيلها في وقت آخر، ليست له هذه الفضيلة والمزية.

وتجد بعضهم إذا جاء وقت القيام، انطرح على فراشه، وغط في نوم عميق، وفوت على نفسه خيراً كثيراً، لعله لا يدركه في عام آخر.

ومن خصائص هذه العشر: ما ذكرته عائشة «من أن النبي - صلى الله عليه وسلم - كان يجيء ليلة، ويشد مشرزه، أي يعتزل نساءه ليتفرغ للصلاة والعبادة. وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - يجيء هذه العشر اغتناماً لفضلها وطلباً لليلة القدر التي هي خير من ألف شهر. وقد جاء في صحيح مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: ما أعلم

قال الإمام النحوي: «العمل فيها خير من العمل في ألف شهر سواها».

وقد حسب بعض العلماء «ألف شهر» فوجدوها ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر، فمن وفق لقيام هذه الليلة وأحبها بأنواع العبادة، فكأنه يظل يفعل ذلك أكثر من ثمانين سنة، فيأله من عطاء جزيل، وأجر وافر جليل، من حرمه فقد حرم الخير كله. وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه» وهذه الليلة في العشر الأواخر من رمضان لقول النبي - صلى الله عليه وسلم - «تحزروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان» متفق عليه. وهي في الأوتار منها أحرى وأرجسى، وفي الصحيحين أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: التمسوها في العشر



قال: التمسوها في العشر المباركة، وهم عنها في غفلة معرضون، فيمضون هذه الأوقات الثمينة فيما لا ينفعهم، فيسهرون الليل كله أو معظمه في لهو ولعب، وفيما لا فائدة فيه، أو فيه فائدة محدودة يمكن تحصيلها في وقت آخر، ليست له هذه الفضيلة والمزية.

يقول النبي - صلى الله عليه وسلم - «وفيه ليلة خير من ألف شهر من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا محروم» حديث صحيح